سر إنشاء جائزة باسم هاني الراهب

• خـــالـد زغـــريــت*

رغم صولات د. طالب عمران وجولاته في تفسير الظواهر الطبيعيَّة الخارقة فإنَّني كنتُ دائمًا أفهمُ رواياته على أنَّها حيلةٌ فنيَّةٌ لتشويق المتابع وجذبِهِ إلى التحليق في الخيال العلميّ. غير أنَّ ما حدث معي ليلةَ دفن هاني الراهب صعقني وجعلني أكذِّب نفسي طويلاً كي لا يَشْمت بي د. طالب عمران. ولو لم تَفْضحني زوجتي لأنَّها حضرت المشهدَ الغريبَ لكنتُ دبَّجتُ هذه الحكاية وامتطيتُ الحبرَ إلى فتوحاتٍ إبداعيَّةٍ غير مسبوقة في الخيال العلميّ. وسأروي لكم الحكاية، وقد لا تصدِّقونني، ولكنْ عندما يَشْفطها د. طالب عمران وتكافئه «نوبل» على تفسيره الخارق لهذه الظاهرة فسوف تطقّون إفحامًا وتفحيمًا.

بعد أن عدتُ من المقبرة مغبّرًا بالحزن والإرهاق من عناء اليوم الطويل في دفن هاني الراهب دخلتُ منزلي متَّجهًا نحو المغسلة لتنظيف يديَّ ووجهي مما عَلِقَ بهما من تراب قبر المرحوم. وتلقتني زوجتي المسكينة بالمنشفة والتعزية المغلَّفة بسخرية من الأدب والأدباء. فتحتُ الحنفيَّةَ لأغسل يديّ، فانزلق عنهما الماء كأنَّه نَزَلَ عن أملسَ مصقولٍ. صعقني المشهد: فقد تحوّل الترابُ الناشف على أصابعي إلى ذهبٍ لاهبِ الاصفرار. خمّنتُ أنَّ رؤيتي الإبداعيَّة تغلبتْ على رؤيتي العينيَّة، لكنّ صرخة زوجتي التي طاش صوابُها ـ «انظرْ، أصابعُكَ ملبَّسةٌ بالذهب» ـ خرقتْ مخيّلتي. وبعد تبادلنا انفغارَ الفم والعيونِ تدافشنا إلى غرفتنا، وانتهينا إلى كتمانِ سرّ هذا السحر الواعد بالنِّعم. وعدنا مرةً أخرى إلى المغسلة لنجرِّب إنْ كانت الكرَّة ستعاد، وفعلاً تكرَّرتْ سبعَ مرات كان الذهبُ يرقّ مرةً بعد أخرى إلى أن انتهى، وكانت حصيلةُ الذهب ما يعادل الأوقيّة.

تناطَحْنا الأفكارَ والأسئلةَ، وانتهَيْنا إلى أنَّ صاحب القبر الذي عَلِقَ على أصابعي ترابُهُ لا بدّ أن يكون مشروعَ قدّيس ولترابه كرامة. وإذ بجرس الباب يُقرع. وارَيْنا كنزَنا بحرص، وخرجتُ لأستطلع الضيفَ الثقيل. وكلُّ ما أذْكره أنِّي فتحتُ الباب. ففتحتُ عينيَّ على وخز الماء والقرص والكولونيا والولولة ونعرةٍ نزقةٍ ذكرتْني بنعرات هاني الراهب الموجعة. أدرتُ بصري وإذا زوجتي تَنْتف شعرَها، وإلى جانبها رجلٌ أشعث أغبر ذو لحية نصفيَّة. بلى، هو هاني الراهب، وكيف لي أن أضيعه؟ ويَبْدو أنَّني خبلتُ، فأيقظني هاني الراهب بخشونته وقال:

«ما وقت تمثيل، أنا شبح هاني الراهب، جئتُ إليك لأن ما الذكرى إلاّ للجرح الأوّل. وأنتَ عندما كنتَ غرّاً برعونتك شجعتَ ذاكرتَه أثناء محاضرته في اتِّحاد الكتّاب العرب حين وقفتَ ظانّاً نفسَك عميدَ الفهم العربيّ تُنَاطِحُ روايتَه **الوباء**، فثقب قرنُكَ ذاكرتَه، وهو لا يَذْكر إلاّك. لذلك أَرْسلني إليك وقال قُلْ لخالد: هاني بطّل الموت.» سألتُه كيف ولماذا؟ وبيني وبينكم لم أكُنْ أفكّر إلاّ أنَّه طمع بالذهب وأنَّه سيخرج ليلطشه منّي. قال لي:

«لم يكن هاني الراهب يخمِّن أنَّ له هذه الأهميَّة بعد أن بار الأدبُ والأدباء. لقد فجعه حزنُ الأمّة ورعاتِها، رعاتِها بالأخصّ الذين تهافتوا على قبره يَبْكونه وأدبَه. لقد هزّت دموعُهم موتَه فأعادت الروحَ إليه. أنتَ، يا غشيم، لا تَعْرف عظمةَ دموع المسؤولين. فما دامت للأديب كلُّ هذه المكانة، وقد اعترفوا بعد موته بدوره وتابوا، فإنَّه سيعود ليَنْعم بهذا الموقف. لَكَمْ تأثَّر وتململ في كفنه، وهو يرى الجرائدَ تَصْدر ملوَّنةً صفحاتُها الأولى بالأسود مقتصرةً على عبارة 'الأم تَنْعى ثروةً وطنيَّةً.' كما أنَّك لا تَدْري كيف عضَّ حجارةَ الشطايح حتى أَدْماها وهو يرى الفضائيَّاتِ العربيَّة تُعْلن الحدادَ، والمذيعاتِ الموشَّحاتِ بالسواد يَنْفرن الدموعَ، وشوارعَ المدن العربيَّة تموج بمسيرات الحداد يتقدَّمها الحرسُ الوطنيُّ رافعين برهبةٍ صورةً كبيرةً له، والجماهيرَ تَحْمل بيدٍ كتبَه وباليد الأخرى ملعقة. إنَّها يقظة حضاريَّة عربيَّة تضْطره إلى أن يغيِّر رأيه ويعودَ إلى الحياة.»

لن أكمل لكم الحكاية إلى نهايتها لأنَّني أمسكتُ بسرِّ تحوُّل تراب قبر هاني الراهب ذهبًا: فقد امتزج الترابُ بدموع المسؤولين العظيمة التي، لغلائها وقدسيَّتها، تحوَّل الترابَ ذهبًا. فهل أنتَ يا د. طالب عمران في مستوى هذه الشطحة العلميَّة؟

طقّ أنتَ وهاني الراهب. لن أُخرجه من القبر كَيْ أتمتَّع بالذهب. وها إنِّي خدعتُكَ وكتبتُ القصّة التي ستدرّ عليّ نوبل. كما أنَّني أمتلك الآن سرَّ الثروة: فسوف أذهبُ إلى سلاَّت مُهْملات المسؤولين ألتقط المناديلَ الورقيَّة التي يَمْسحون بها عيونَهم، فأَعْجنها بالتراب والماء وأحوِّلها ذهبًا. وعندما أَغْنَى سأنشئ جائزةً باسم هاني الراهب.

دمشق

* ـ كاتب من سوريا.